مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (30) العدد (1)2008
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (1) 2008

التّوظيف التّراثيّ في شعر أدونيس

الدّكتور محمد معلاّ حسن*

(تاريخ الإيداع 18 / 11 / 2007. قبل للنشر في 27 / 1 / 2008)

□ الملخّص □

يدرس هذا البحث موضوع "التوظيف التراثي في شعر أدونيس" منطلقاً من الحديث عن ثقافته التراثية، التي أسهمت في بلورة موقفه منه، ومركزاً على توظيف مصادر التراث في إبداعاته الشعرية من: قرآن كريم، وحديث شريف، وأقوال مأثورة، وأمثال، وشخصيات تراثية بأطيافها وألوانها كلها: السياسية، والأدبية، والفنية، والدينية، والأسطورية. وقد أولى البحث الشخصيات التراثية عناية خاصة؛ لأنها تحتل مساحة واسعة من إبداع أدونيس الشعري، كما أبرز البحث تأثر أدونيس بالفكر الصوفي، والأسطوري والتناسخي ولاسيما أسطورة الخصب التي بنى عليها نظريته الفكرية، ومشروعه الحضاري في الهدم والبناء، والدعوة إلى التجاوز والتخطي. وقد انتهى البحث إلى خاتمة تلخص أهم النتائج التي توصّل إليها الباحث، مع ثبت للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

كلمات مفتاحية: التراث، التوظيف التراثي، الصوفية، الأسطورة.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب الثانية – جامعة تشرين – طرطوس – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (30) العدد (1)2008
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (1) 2008

Functional Use of Tradition in Adonis' Poetry

Dr. Mohammad Moalah Hasan*

(Received 18 / 11 / 2007. Accepted 27 / 1 / 2008)

□ ABSTRACT □

This article tackles the question of tradition and its functional use in Adonis' poetry, starting with his traditional education that contributed to crystallizing his position on this matter; I have paid special attention to Adonis' employment of various traditional sources in his poetic creations like Quran, Hadith, sayings, proverbs, and traditional characters from all fields, be they political, literary, religious, and mythical. Traditional characters have also been given special prominence because they occupy a wide range in Adonis' Poetic creativity. The article has also demonstrated Adonis' indebtedness to Sufism, myth, and reincarnation, with special reference to fertility myths on which he built his theory of construction and deconstruction and his call for transcendence. The conclusion summarizes the most important points, ending with a list of works cited by the researcher.

Keywords:
Functional use of tradition
Tradition
Sufism
Myth

***Associate Professor, Arabic Department, Second Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

يأتي أدونيس في طليعة شعراء الحداثة الذين سعوا إلى التمرد على سلطة التراث، وتخطي خطوطه الحمر في مشروع حضاري عصري، يرمي إلى هدم البنى الثقافية القديمة التي تجاوزها الزمن، وبناء بنىً ثقافية جديدة، تتماشى و روح العصر، وحركية التحديث والتطوير.

ولا بدّ لمن يحمل لواء هذا المشروع الحداثي من أن يكون على معرفة عميقة بأسرار التراث ومفرداته، حتى يستطيع أن يميّز غثّهُ من ثمينه، حيّه من ميته، جامده مما هو قابل للحياة والاستمرار.

وأدونيس من هذا المنظور، لا يصنف من بين دعاة العصرية المطلقة الذين يقفون موقفاً معادياً من التراث، ولا يرون فيه غير الظلامية والجمود والتخلف[1]، بل يُصنَّف بين الذين تحرروا من سلطة التراث، واستطاعوا أن يقفوا على مسافة منه، تؤمّن وضوح الرؤيا، وصوابية الحكم، فيما سمي بمعركة الجديد والقديم.

إن اهتمامي بإبداعات أدونيس الشعرية، ومتابعة أفكاره، وآرائه النقدية، من خلال ما يقدّمه مشروعه التحديثي، أغرياني بالبحث عن كشف حقيقة موقف أدونيس من التراث، وتقصي حقائق هذا الموقف، ورصد تجلياته في آرائه النقدية، وإبداعاته الشعرية فانطلقتُ من خطة عمل، تبدأ بالتعريف بثقافة أدونيس التراثية ذات المنابع، والمناهل الثرّة. ثم انتقلت إلى توضيح موقف أدونيس من التراث، وما يمكن أن يثيره من جدل، ثم انتقلت إلى صلب الموضوع، وهو "التوظيف التراثي في شعر أدونيس"، وقد درست ذلك من خلال مصادر عدة هي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأقوال المأثورة، والأمثال، والشخصيات التراثية، والصوفية، والفكر التناسخي، والأسطورة، ثم انتهيت إلى خاتمة تعرض النتائج التي توصل إليها البحث، وثبت للمصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذه الدراسة.

إن جُلَّ ما أتوخاه في هذه الرحلة المضنية التي لن تخلو من الصعوبات، ولاسيما صعوبة الحصول على المصادر والمراجع، وصعوبة الإحاطة بآراء هذا الكاتب الموسوعي المبدع ومواقفه مع ندرة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، أن يتسم عملي هذا بالجدة والأصالة، آملاً أن أقدّم ما فيه متعة المغامرة، وفائدة التجربة.

ثقافة أدونيس التراثية:

تربّى أدونيس على لغة إعجاز القرآن الكريم، وفصاحة نهج البلاغة، ومن معين الشعر العربي القديم شرب وتروّى، وعلى أيدي فحول شعراء العربية من امرئ القيس إلى آخر شاعر من شعراء النهضة، تتلمذ وشبّ، ومن فلسفة ابن رشد، والحلاج، والنفري، وابن عربي، تعلم التمرد والرفض، وسعى إلى التجاوز والتخطي، ومن معرفته العميقة بالتاريخ الفينيقي في المنطقة، ولدت المسحة التموزية، وعززتها معرفته بأساطير الشرق في بلاد الرافدين ووادي النيل. إضافة إلى معرفته، واطلاعه على الثقافة اليونانية والرومانية القديمة.

ومن معرفته الجيدة باللغة الفرنسية استطاع أن يفتح نافذة واسعة على الحضارة الأوربية الحديثة، فقرأ راسين، وبودلير ومولييرن، وغيرهم من أعلام الشعر الفرنسي والغربي.

إن أدونيس قارئ متعمق، ومتفحص للتراث العربي والعالمي، لم يترك درباً من دروبه إلا رادهُ، ولم يدع زاوية فيه إلا اكتشفها، ولا أدلَّ على ذلك وأفصحُ مما عكسه إبداعه الشعري من توظيف لهذا التراث –وهذا ما سيكون محور بحثنا

[1] د. عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، (بيروت: دار العودة)، ص 15–30.

هذا– إضافة إلى ما قدمه من دراسات في هذا المجال، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر "ديوان الشعر العربي"، وهو مختارات شعرية لأبرز الشعراء العرب منذ الجاهلية، وحتى عصرنا الحاضر، وقد نشره في ثلاثة أجزاء. وهناك كتاب "الثابت والمتحول" موضوع رسالة الدكتوراه التي تقدم بها إلى الجامعة اليسوعية في بيروت عام 1973 م وهو بحث في الاتباع والإبداع عند العرب. أعاد أدونيس نشر رسالته هذه في ثلاثة مجلدات، تحمل العناوين التالية: "الأصول" 1974 م و"تأصيل الأصول" 1977 م و"صدمة الحداثة" 1978 م. "ويلاحظ أن عمل أدونيس هذا جاء ليغطي مجالاً واسعاً جداً من النشاطات الحضارية، والفكرية التي شهدتها المنطقة العربية ابتداءً من عمر ازدهار الحضارة العربية والإسلامية، وانتهاء بعصر النهضة الحديثة"[2].

ومن مؤلفات أدونيس بما يخص التراث (الصوفية والسريالية) و"(النص القرآني، وآفاق الكتابة) و(المحيط الأسود).

مما تقدم يمكننا أن نخلص إلى القول: إن ثقافة أدونيس، كانت ثقافة موسوعية، شملت ما أنتجته الحضارة الشرقية والغربية بقديمها الموغل في القدم، وحديثها الملون بمختلف ألوان الحداثة المعاصرة.

موقف أدونيس من التراث:

يمثل موقف أدونيس من التراث –في رأينا– موقف التيار المعتدل في مدرسة الحداثة في الشعر العربي، الذي حاول أن يقف على البعد المناسب منه، وأن ينظر إليه على ضوء المعرفة العصرية النظرة الواعية المتفحصة، فيسمي الأشياء بمسمياتها، فلا يغض الطرف عن سلبياته، كما فعل المتعصبون له، ولا ينكر ما فيه من قيم روحية وإنسانية، كما فعل المغالون من أتباع مدرسة الحداثة، دعاة العصرية المطلقة.

ينتقد أدونيس الدراسات الحديثة حول التراث، ويصفها بالتبسيطية والتلفيقية، والتوفيقية إذ يقول: "تتحرك الدراسات الحديثة حول التراث في قفص من الأفكار المسبّقة الجاهزة، وهي أفكار تبسيطية، تلفيقية، توفيقية. ذلك أنها تستعيد الكتابات التي كتبت حول "الأصول" بأسئلتها وأجوبتها، ولا تطرح على الأصول أسئلتها الجديدة الخاصة"[3].

وهو يعيد جوهر مسألة الموقف من التراث إلى الفكر ذاته، فهو الذي يتحمل المسؤولية، لأنه لم يستطع أن يرقى بنظرته إليه إلى مستوى حضاري متطور، فكيف يمكن أن تأتي النتائج صائبة وصحيحة؟ يقول أدونيس: "والفكر الذي لا يفكر في أصله، لا قيمة له، ولن يكون إلا قشرة يابسة، أو سحابة صيف، خصوصاً أننا لا نعرف قيمة ما ينشأ من فكر في المجتمع العربي (وفي كل مجتمع)، إلا إذا عرفنا تاريخ القيمة الفكرية فيه، لا نعرف هذا التاريخ إلا إذا درسنا أصول الفكر الماضي، ونتاجات هذا الفكر نفسه بما هي، وكما هي، واستوعبناها، وتمثلناها في امتلاك معرفي نقدي خلاق"[4].

وأدونيس يعترف أننا أخطأنا حيث أفلح القدماء، فالقدماء تعاملوا مع الأصول في السياسة والدين والفكر على مستوى يستجيب لمشكلاتهم وعصرهم. فماذا فعلنا نحن؟ يتساءل أدونيس: "إذا كان أسلافنا حددوا في تأويلاتهم للأصول مستوى معيناً للعلاقة بين الدين والسياسة من جهة وبينهما وبين الفكر أو العقل أو الثقافة من جهة ثانية، مستوى

[2] د. علي الشرع. بنية القصيدة في شعر أدونيس، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1987 م)، ص 26.

[3] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). المحيط الأسود (بيروت: دار الساقي، 2005 م) ص 18.

[4] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). المحيط الأسود، ص 39.

يستجيب لمشكلاتهم وعصرهم، فلماذا نتبنى نحن اليوم، هذا المستوى ذاته، ولماذا لا نحدد مستوى آخر يستجيب لمشكلاتنا المختلفة، وعصرنا المختلف"[5].

إننا لا نرى أدونيس ينظر إلى التراث إلا نظرة احترام وتقدير إذ يقول: "ليس في اتجاه الشاعر المعاصر هذا الاتجاه ازدراء للماضي، أو انقطاع عن التراث، كما قد يخيل لبعضهم، إنما هو استجابة للوضع الحضاري الراهن"[6]، على الرغم من أن هناك من وصف أدونيس بأنه "عدو التراث الأول، وأشرس من أساء إليه" كالكاتب المصري مهدي العبيدي على حد زعم الدكتور علي الشرع.[7]

وأدونيس لا يحرض الشاعر المعاصر على التراث، ويدعوه إلى قطع الصلة به، بل يحاول أن يضع تصوراً للعلاقة الصحيحة التي يجب أن تتجسد بين الشاعر المعاصر والتراث إذ يقول: "من البداهة أن الشاعر العربي المعاصر لا يكتب من فراغ، بل يكتب ووراءه الماضي، وأمامه المستقبل، فهو ضمن تراثه، ولكن هذا الارتباط ليس محاكاةً للأساليب والنماذج التقليدية، وليس تمشياً معها، ولا بقاءً ضمن قواعدها، ومناخها الثقافي الفني والروحي. إنما هو طاقة معرفة، وحيوية خلق، وذكرى في القلب والروح"[8].

فالارتباط بالتراث كما يريده أدونيس، يجب أن يكون ارتباط خلق، وإضافة واستباق، وهو متعدد، متنوع يصل أحياناً إلى حد التضاد إذ يقول: "إن هناك نوعاً من الارتباط بالتراث، هو ارتباط التقابل والتوازي والتضاد"[9].

إن هذا الموقف يحرر الشاعر المعاصر من سلطة التراث وعصبيته، ويعطيه الحرية المبدعة في التعامل معه، ويضعه في الموقف الصحيح الذي يجب أن يقفه. فالتقابل –في رأينا– دعوة إلى مواجهة التراث والتحرر من تبعيته وسلطته، والتوازي يرتفع بالشاعر إلى مستوى القمم الشاهقة التي نعتز بها في تراثنا وحضارتنا. أما التضاد فهو دعوة إلى رفض كل ما هو سلبي ومتخلف وتجاوزه.

إن للتجاوز الذي يدعو إليه أدونيس فلسفته الخاصة، وشروطه الموضوعية التي يحددها بقوله: "إن تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الإطلاق، إنما يعني تجاوزاً لأشكاله، ومواقفه، ومفهوماته، وقيمه التي نشأت كتعبير تاريخي عن الحالات والأوضاع الثقافية والإنسانية، والتي يجب اليوم أن يزول فعلها، كزوال الظروف التي كانت سبباً في نشوئها"[10].

ويرى أدونيس أن عمق الصلة بين الشعر الحداثي الجديد، والشعر القديم أكبر، وأعمق من العلاقة بين الشعر القديم، والنماذج المقلدة له إذ يقول: "بين الشعر العربي ا لجديد، والشعر العربي القديم صلات أعمق، وأثمن مما بين هذا الأخير، وبين الشعر العربي المعاصر الذي ينسج القديم، ويكرره"[11].

فالحداثة العربية كما يراها أدونيس: "تسبح في الإبداعات العربية الماضية، وحين نقول بتجاوز الماضي فإننا نعني تحديداً، تجاوزنا لتصورات معينة للماضي، أو لفهم معين، أو لبنى تعبيرية معينة، أو لمعايير وقيم معينة، ولا

---

[5] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). المحيط الأسود، ص 19.

[6] علي أحمد سعيد إسبر. زمن الشعر، (بيروت: دار العودة، 1975 م)، ص 45.

[7] د. علي الشرع. بنية القصيدة في شعر أدونيس، ص 22–23.

[8] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). زمن الشعر، ص 45.

[9] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). زمن الشعر، ص 45.

[10] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). زمن الشعر، ص 60.

[11] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). زمن الشعر، ص 60.

يعني أننا ننفك أو ننفصل عنه، كأنه أصبح عضواً ميتاً زال وتلاشى، فهذا محال عدا أن القول به جهلٌ كاملٌ، لا بالماضي وحده، بل بطبيعة الإنسان وطبيعة الإبداع"[12]

وتأتي الدكتورة خالدة سعيد (زوج أدونيس) لتشهد بأن دعوة أدونيس إلى التجاوز والتخطي، لم تبق تهويماً نظرياً، بل تمثلها قولاً وعملاً إذ تقول: "أدونيس يستمر في تجاوز نفسه، وإذا كان في الشعر يتجاوز نفسه فإنه يتسلح كذلك بكل تجاربه وخبراته السابقة في سبيل تحقيق المزيد من الكشف والتجاوز. موقفه من التراث عين هذا الموقف: الاغتذاء بالتراث وهضمه، والإفادة منه لتجاوزه، فهو يتجاوز التراث متسلحاً بهذا التراث لا منقطعاً عنه"[13].

وتجدر الإشارة إلى وجوب التمييز بين القديم والتراث إذ قد يخيل للبعض أنهما شيء واحد، وهما في الأصل مختلفان. فالقديم هو ذلك الركام الضخم مما تتركه الأجيال السابقة، ولكنه لا يشكل تراثاً له حضوره الكينوني المتماسك. أما التراث، فهو ذلك الكل الحي الذي يشكل جسداً متضافراً، يطرح عنه كل ما لا ينسجم معه، وهو الذي يمتلك القدرة على تحريك الواقع المعيش أدبياً وشعرياً. ويترتب على هذا أن القديم في حالة ثبات أبدي طالما أنه متجدد بالزمن لا بالفاعلية، وأن التراث هو ذلك المتحرك الذي يتغير بتغير الزمن على حد زعم د. عزيز الدسوقي[14] وهذا ما يتبناه أدونيس في قوله: "فالتراث الحقيقي إذن هو المتغير، ولهذا كان تمسك الإنسان بتراث لا يتغير دليل على أن هذا الإنسان فقد القدرة على تجديد نفسه، وأصبح في مستوى الأشياء"[15].

ومما تقدم يمكننا أن نصل إلى خلاصة: أن الحداثة عند أدونيس حاجة حضارية تطورية، لا تسيء إلى التراث الذي يجب أن تنبثق منه، وتبقى وثيقة الصلة به، وأن قيمة التراث تكمن بما يحتويه من طاقات إبداعية، تضيء الحاضر، وتسهم في بناء المستقبل.

إن أبرز وجوه العلاقة بين الشاعر الحداثي المعاصر والتراث، تمثلت في توظيف شعراء الحداثة لقيمه الروحية والإنسانية في إبداعاتهم الشعرية، والاستفادة من تجاربه مع تجاوز أشكاله التعبيرية. فكيف تجلى هذا التوظيف في إبداعات أدونيس الشعرية؟ هذا ما ستجيب عنه هذه الدراسة.

التوظيف التراثي في شعر أدونيس:

نظر أدونيس مثل الكثير من شعراء الحداثة إلى التراث نظرة تفهّمٍ، وإدراك، ووعي، مستلهماً ما فيه من قيم روحية وإنسانية في إبداعاته الشعرية، وقد تعامل مع التراث الإنساني بالطريقة نفسها التي تعامل بها مع التراث العربي، فما مصادر التراث التي استفاد منها؟ وكيف تعامل معها؟

1- القرآن الكريم: يعدّ القرآن الكريم المصدر الأول الذي استقى شعراء الحداثة من معانيه السامية، وقصصه المعبرة الكثير من مضامينهم الشعرية، واستفادوا منها في التعبير عن أفكارهم ورؤاهم. وأدونيس واحد من شعراء الحداثة الذين استفادوا من لغة القرآن ومعانيه، ولكن على نطاق ضيق قياساً على غيره من الشعراء. فمن المشاهد التي استفاد فيها أدونيس من القرآن الكريم قوله في قصيدة بعنوان "الميت":

يا لهب النار الذي ضمّه

---

[12] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). المحيط الأسود، ص 48.

[13] د. خالدة سعيد. حركية الإبداع، (بيروت: دار العودة، 1982) ص 93.

[14] د. عبد العزيز الدسوقي. (الأديب العربي بين التراث والمعاصرة). مجلة التراث العربي، العدد 24، 1987، ص 117.

[15] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). الثابت والمتحول، (بيروت: دار العودة، 1975 م)، ص 102.

لا تك برداً، لا ترفرف سلام
في صدره النار التي كوّرت
أرضاً عبدناها، وصيغت أنام[16].

في هذا النص تأثر واضح بالقرآن الكريم، إن لم يكن على مستوى المضمون، فإنه واضح على مستوى العبارة (لا تك برداً)، (لا ترفرف سلام)، إن هذا الكلام يذكرنا بقوله تعالى: "وقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين"[17].

إن أدونيس لا يريد من ناره أن تكون برداً وسلاماً على من ألقي فيها؛ لأنها تختلف عن نار إبراهيم التي طلب منها أن تكون برداً وسلاماً هذا وإن بدا متناقضاً، فإنه لا يناقض منطق الشعر، وحقيقة الموقف، فالنار لا يراد منها أن تحرق البريء والطاهر، إنما يجب أن تحرق المستبد والطاغي؛ ولذلك أراد الله لها ألاّ تحرق إبراهيم، فالنار التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي نار حقيقية، أما النار التي قصدها أدونيس فهي نار مجازية تصطلي الإنسان من الداخل وربما كانت نار الخلق، نار المعاناة والإبداع، أو نار طائر الفينيق التي يحترق بها ليبعث من رماده مجدداً شبابه وحيويته، إنها النار التي تطهّر وتبدع.

وفي مقطع آخر من قصيدة أخرى يقول أدونيس:

ربي هيئ موضعاً مباركاً لعبدك الذليل
هبني مقعداً منعماً أكوابه من فضه
وذهب، ولدانه مخلدون
هبني الخلود في جوارك الحبيب يا إلهي[18].

يضعنا أدونيس في هذا المقطع أمام نص أشبه بالابتهال الديني الذي يتوجه به المؤمن إلى خالقه والكثير من تراكيب هذا المقطع واضح التأثر بالتركيب القرآني مثل (أكوابه من فضة وذهب) (ولدانه مخلدون) والمشهد في المقطع الشعري يعكس صورة الجنة كما صورها الذكر الحكيم، وكيف سيعامل المؤمنون فيها.

ومن التراكيب القرآنية التي استخدمها أدونيس في شعره ما جاء في قصيدة (أمينة) إذ يقول:

إذن لصرتُ الغيم والشعاع
في الأفق–هذا البلد الأمين[19]

فتركيب (هذا البلد الأمين) يذكرنا بقوله تعالى في سورة التين: "والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، إنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"[20].

وفي مشهد آخر من قصيدة بعنوان (تحولات العاشق) من كتاب الهجرة والتحولات يقول:

ننحني، نتوتر، نتفاعل، نتقاطع، نتحاذى
أنا لباس لك وأنت لباس لي[21].

---

[16] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، م1 (بيروت: دار العودة، 1971م)، ص 117.

[17] القرآن الكريم. سورة الأنبياء. الآية 69، 70.

[18] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، م1، ص 260.

[19] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، م1، ص 287.

[20] القرآن الكريم. سورة التين، الآيات 3,2,1.

[21] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 138.

في هذا المقطع استعار أدونيس قوله "أنا لباس لك وأنت لباس لي" من قوله تعالى: "هنّ لباس لكم، وأنتم لباس لهنّ"[22]. مع اختلاف أن حديث أدونيس هنا جاء بصيغة المفرد بينما جاء في الآية القرآنية بصيغة الجمع.

كما أوحت سورة مريم لأدونيس بتصور خاص ضمن حالة انفعالية وجدانية لا علاقة لها أبداً بما ورد في سورة مريم إذ يقول:

من يعطني ورقةً أحمّلها أكداساً من البخور والصندل
أنقطها كالعروس وأجلوها
أقرأ عليها سورة مريم
أهزّ فوقها جذوعي من الشوق والحلم
وأرسلها إلى أحبابي
مليئة كالتفاحة
خفيفة وخضراء، كمهرة الخضر[23].

مما تقدم يمكننا أن نقول: لقد تأثر أدونيس مثل غيره من شعراء الحداثة بالقرآن الكريم ولا سيما بالتراكيب والأبنية القرآنية. لكن هذا التأثر جاء على نطاق ضيق، وقد جاء في شعر البدايات، وقلما وجدناه في أشعاره المتأخرة.

2- الأقوال المأثورة والأمثال: لا يميل أدونيس إلى استخدام الأقوال المأثورة والأمثال في شعره، فهي لا تحتل إلا مساحة هامشية في إبداعه الشعري الكبير، وقد وظفها أدونيس بطريقتين:

أ- أقوال مأثورة وأمثال ضمّنها أدونيس في قصائده ووضعها بين قوسين وقد جاء أغلبها باللهجة العامية نذكر منها:

- **"يا ويل ويل من كفر**
يا سعده من اعتبر"[24]
- **"ومنسمي عمّنا**
اللي بياخد أمّنا"[25]
- **"يا الله الدهر دولاب"**[26]
- **"الله الحي الباقي**
عفوك عفوك يا الله"[27]

وأدونيس كما يبدو، لم يستخدمها لذاتها، وإنما استخدمها بوصفها شواهد على ألسنة متحدثيها تعكس خلفية الأشخاص المتحدثين بها وبساطة الواقع الذي تصدر عنه. ويكاد يغيب توظيف الأحاديث الشريفة في شعره، وهذا ما يعكس فكر أدونيس العلماني، وعدم اهتمامه بشؤون الدين وتأثره به.

---

[22] القرآن الكريم. سورة البقرة، الآية 187.
[23] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 215 – 216.
[24] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 261.
[25] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 310.
[26] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 311.
[27] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 312.

ب – أقوال مأثورة وأمثال كتبها أدونيس في مقدمات دواوينه، ومهّد بها لعددٍ من قصائده، وأغلبها مأخوذ من حقل التصوف نذكر منها:

- **"وقال لي: اقعد في ثقب الإبرة، وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا تمده، وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان"[28]** **الغفري**
- **"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"[29]** **النفري**
- **"عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه"[30]** **أبو ذر الغفاري**
- **"كادت الفاقة أن تكون كفراً"[31]** **حديث شريف**
- **"آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق"[32]** **الإمام علي**
- **"وكنت لا أرى في النوم شيئاً إلا رأيته في اليقظة"[33]** **أبو القاسم الجنيد**
- **"وأوقفني في الرحمانية فقال: لا لا يستحق الرضا غيري، فلا ترض أنت، فإن رضيت محقتك"[34]** **النفري**
- **"وقال لي: النعيم كله لا يعرفني، والعذاب كله لا يعرفني، وقال لي: معناك أقوى من السماء والأرض"[35]** **النفري**

ومن الجدير بالذكر هنا أن أدونيس وضع هذه الأقوال بين قوسين وذكر اسم صاحب كل قول تحته كما ورد.

3– الشخصيات التراثية: يظهر أدونيس ولعاً كبيراً بتوظيف الشخصيات التراثية على اختلاف أطيافها وألوانها (سياسية، دينية، فلسفية، أدبية، فنية، أسطورية..إلخ)، وهي تحتل مساحة واسعة من إبداعه الشعري، حتى إنه عنون أكثر من ديوان باسم شخصية تراثية مشهورة مثل ديوان "أغاني مهيار الدمشقي" و "الصقر وتحولات الصقر" فالعنوان الأول استقاه من شخصية "مهيار الديلمي" الشاعر العباسي المتمرد المعروف، والثاني من شخصية الخليفة الأموي "عبد الرحمن الداخل" الملقب بصقر قريش، الذي فر من سيوف العباسيين، وذهب إلى الأندلس حيث وضع حجر الأساس لبناء الخلافة الأموية في الأندلس في ظل حضارة عربية إسلامية مزدهرة، امتدت أكثر من أربعة قرون.

ومن الجدير بالذكر هنا أن أدونيس استخدم في ديوانيه السابقين ما يعرف بتقنية القناع حيث يتقمص الشخصية مستخدماً الحديث على لسانها، وبضمير المتكلم محملاً إياها أفكاره ورؤاه، وما يود البوح به.

وأدونيس عندما يوظف الشخصية التراثية، يريدنا أن نأخذ منها العبرة والموعظة، سواء من مواقفها الإيجابية، أم السلبية المؤثرة في مجرى التاريخ، وهو يبدي دهشة وإعجاباً من الشخصيات المؤثرة والفاعلة، وهو يحاول أن يقدم لنا خلاصة تجربتها الإنسانية، وما تميزت به تلك الشخصية، فيدهشه في شخصية معاوية بن أبي سفيان الحنكة والدهاء، أو ما عرف بسياسة الشعرة التي نقلت العالم الإسلامي من حالة الاضطراب والفوران إلى حالة الأمن والاستقرار بغض

[28] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 9.
[29] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 9.
[30] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 43.
[31] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 43.
[32] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 167.
[33] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 167.
[34] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 209.
[35] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس) الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 219.

النظر عن مشروعية ما فعل. ويستنكر في شخصية الحجاج سياسة البطش التي اتبعها، ويحمل مسؤولية ذلك على الواقع، فالحجاج في رأيه ليس أكثر من ضحية هو الآخر لهذا الواقع الذي أوصله إلى هذه العقدة النفسية.

لقد قدم أدونيس تلك الشخصيات التراثية بطريقتين عموماً:

الأولى: وقد عنون فيها القصيدة بعنوان "مرثية" ومنها "مرثية عمر بن الخطاب"[36]، و"مرثية أبي النواس"[37]، و"مرثية الحلاج"[38]، و"مرثية بشار"[39]، وقد أفصح أن تلك الشخصيات التاريخية، انتهت نهايات مؤلمة لا تستحقها.

الثانية: وقد عنون فيها قصائده بعنوان "مرايا" محاولاً أن يعكس من خلال تلك المرايا جوهر كل شخصية من تلك الشخصيات، ومنها "مرآة لزيد بن علي"[40]، و"مرآة لزرياب"[41]، و"مرآة الحجاج"[42]، و"مرآة لمعاوية"[43]، و"مرآة لوضاح اليمن"[44]، و"مرآة لأبي العلاء"[45]، واكتفي هنا بالإحالة إلى تلك القصائد؛ لأن المجال لا يتسع للتحليل والتفصيل.

ويمكننا أن نصنف الشخصيات التراثية التي وظفها أدونيس في أشعاره في المجموعات التالية:

أ- شخصيات سياسية: ونذكر منها شخصية معاوية بن أبي سفيان، رمز الدهاء والحنكة في الحكم "سياسة الشعرة"، وشخصية عمر بن الخطاب رمز العدل والثبات على الحق، وشخصية الحجاج رمز البطش والجبروت، وشخصية "الصقر" عبد الرحمن الداخل رمز الطموح والمغامرة، وشخصية الحسين رمز التمسك بالدفاع عن الحق والمبدأ حتى الشهادة، وشخصية تيمور رمز الظلم والوحشية ولا يتسع المجال هنا لعرض أكثر من نموذج يقول أدونيس في "مرآة الحجاج":

ليس له وراء
يرفض ثدي أمه
كان اسمه الحجاج
وثقبوا وراءه
ذبحوا فأراً
ودهنوا بدمه الحجاج
ذبحوا تيساً ودهنوا بدمه الحجاج
فالتذّ بالدماء
صارت له رضّاعةً وأمّاً.[46]

---

[36] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 1، ص501.
[37] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 1، ص 505.
[38] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 1، ص 506.
[39] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 1، ص 508.
[40] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 338.
[41] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 342.
[42] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 347.
[43] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 483.
[44] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 488.
[45] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 499.
[46] علي أحمد سعيد إسبر-الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 347.

في هذه القصيدة يجسد أدونيس نظرية علمية –على بعد المسافة بين العلم والشعر– وهي أن الإنسان ابن البيئة، وهي المسؤولة عن تكوين شخصيته، وتحديد سلوكه. فلا أحد يولد مجرماً، فالحجاج في هذه القصيدة كما يرى أدونيس، لم يولد بخلفية إجرامية، وإنما هو ضحية من ضحايا الواقع، وقوى الشر هي التي أوصلته إلى هذه الحالة، ففي نظام عادل وإنساني، لا يمكن أن يصل الحاكم إلى هذه الحالة. وهذا ما يتمثل بواو الجماعة التي استخدمها أدونيس والتي تمثل المناخ الاجتماعي والسياسي في ذلك العصر حيث تربى الحجاج على البطش والعنف، ولم يجد من يردعه، ألم يقل المثل العربي القديم " كل شيء بالعادة حتى العبادة ".

ب– شخصيات أدبية: وأغلبها من الشعراء الذين تمردوا على سياسات عصرهم، وجمود واقعهم، فعانوا ما عانوا، ودفع بعضهم ثمناً غالياً نذكر منهم: أبو النواس شاعر الخمرة والمجون، وبشار بن برد الساخر من عقائد عصره وسلطته، والداعي إلى التحرر الجنسي والأخلاقي، مما جعل رجال الحديث والفقه يحاربونه ويحرضون عليه[47].

ومن الشخصيات الأدبية الأخرى مهيار الديلمي الشاعر العباسي المتمرد، ووضاح اليمن قتيل الحب الذي يمثل قضية الحب المقموع بعد أن دفنه الخليفة وهو حي في صندوق بسبب علاقته الغرامية مع زوجته أم البنين، ولا ننسى المتنبي، وأبا العلاء المعري الشاعر والفيلسوف الحر الذي أعجب أدونيس بموقفه من العالم، ورأيه فيه المعري الذي اتهم بالزندقة والكفر، لأنه تحرر من الخوف بأشكاله كلها، ولم يعرف المجاملة والمحاباة، فسمى الأشياء بأسمائها، ووصف الناس بصفاتهم الحقيقية، لأنه لم يكن لديه ما يخسره، وليس لديه ما يخشاه يقول أدونيس في قصيدة بعنوان "مرآة لأبي العلاء"[48]:

أذكر أنني زرت في المعرة
عينيكَ، أصغيتُ إلى خطاك
أذكر أن القبر كان يمشي مقلداً خطاك
وكان حول القبر
صوتك
مثل رجةٍ ينام
في جسد الأيام أو في جسد الكلام
على سرير الشعر.

من حق أدونيس أن يعجب بهذا الصوت الفريد في الشعر العربي، وهذه الشخصية العبقرية الحرة صاحبة الفلسفة الحياتية التي قالت كلمتها بشجاعة ومضت تاركة صوتها يجلجل في أسماع الزمن كلحن فريد للحق والحرية.

ج– شخصيات دينية ذات بعد فلسفي صوفي" تأثر أدونيس بفلسفة التصوف في الفكر العربي الإسلامي عند النفري، وابن عربي، والغزالي، والحلاج، والجنيد وغيرهم، وهذا لا يعني أننا يمكن أن نصنف أدونيس بين أتباع التصوف ومريديه، بل يمكن تصنيفه بين الشعراء الذين تأثروا بفلسفة التصوف، ولغتها الغامضة خصوصاً.

فمن التأثير الصوفي أصبحت اللغة عند أدونيس إشارات ورموزاً، حيث يقول: "العالم فينا إشارة، العالم فينا إذاً ليس موجوداً في العالم، بل في ما وراء العالم".[49]

---

[47] أحمد مبارك الخطيب. الحداثة في شعر بشار بن برد، (مجلة جامعة تشرين مج 18، عدد 9)، ص 140.

[48] علي أحمد سعيد إسبر–الأعمال الشعرية الكاملة – مج 2، ص 499.

[49] علي أحمد سعيد إسير. الصوفية والسريالية، (بيروت: دار الساقي 1992م)، ص 202.

لقد تحدث أدونيس في كتابه "الثابت والمتحول" عن التجربة الصوفية، ولاسيما فيما يتعلق بالعلاقة الجدلية بين الظاهر والباطن موضحاً أن الفقهاء لم يفهموا تلك العلاقة، ففسروها بالاتحاد والحلول "العلاقة بين

الظاهر والباطن، بحسب هذه الجدلية، لا تعني أن أحدهما عين الآخر، إنما تعني أن الباطن هو الأصل، وأن الظاهر صورته"[50].

ويرى أدونيس أن جمالية التصوف تقوم على التناقض، وهو يعني أن الشيء لا يفصح عن ذاته إلا في نقيضه، الموت في الحياة والحياة في الموت، والنهار في الليل، والليل في النهار[51].

من المعاني الصوفية التي وظفها أدونيس في أشعاره معنى الحلولية الذي يرى بأن الله يحل في جميع مخلوقاته إلى درجة قول الحلاج:

أنا الله والله أنا، وكان السبب الرئيس في إعدامه. يقول أدونيس:

في أي ربٍ جديد
تنهض أجسادنا
ضاق علينا الحديد
وضاق جلادنا[52]

ومن المعاني الصوفية التي طرقها أدونيس مفهوم وحدة الوجود التي عرفناها عند ابن عربي، والتي تلخص بأن الله عند أصحاب هذا المذهب أحدٌ مطلق والعالم كله مظهر لهذه الوحدة الإلهية المطلقة. إذن في الوجود تكثير وفي الكثرة وحدة، وهذا الأمر ليس على مستوى البشر فقط وإنما على مستوى الكون أيضاً[53].

وأدونيس يرى ذلك ويقر به إذ يقول:

وحّد بي الكون، فأجفانه
تلبس أجفاني
وحّد بي الكون بحريتي
فأيّنا يبتكر الثاني؟[54]

ومن المفردات ذات المسحة الصوفية التي يكثر ورودها في شعر أدونيس (القلق، الشك، الحيرة، الكشف، الرفض، الاغتراب، النار)، وللنار عند المتصوفين مكانة مهمّة حيث يزعمون أن الله يتجلى لهم في نشوة تصوفهم في هالة من النار المقدسة، والنار عند أدونيس أداة هدم، وتطهير، وطريق إلى التجاوز والتخطي.

ومن نماذج استخدام النار في شعر أدونيس أختار:

- أحرق ميراثي، أقول أرضي
بكرٌ ولا قبور في شبابي[55]
- انتظر الله الذي يجيء

---

[50] علي أحمد سعيد إسبر. الثابت والمتحول، (بيروت: دار الساقي 2001م)، ص 92.

[51] علي أحمد سعيد إسبر. الصوفية والسريالية، (بيروت: دار الساقي 1992م)، ص 140.

[52] علي أحمد سعيد إسبر. الآثار الكاملة، مج 1 (بيروت: دار العودة، 1971 م)، ص 513.

[53] أ. وفيق خنسة. دراسات في الشعر الحديث، (بيروت: دار الحقائق، 1980 م)، ص 26.

[54] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، ص 46.

[55] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، ص 368.

مكتسياً بالنار[56]

– كان أبو تمام

مشتعلاً كالجمر

خلف شتاء الليل والأحلام[57]

– أشعل تحت سقفها حريقي

أبدأ تحت سقفها طريقي[58]

– وسيأتينا في عربات النار

كالحب سوار[59]

إن مشاهد الحديث عن النار في شعر أدونيس أكثر من أن تحصى، ولاسيما في المجلد الأول من آثاره الكاملة، وأغلبها يحمل دلالات صوفية.

ومن أبرز مشاهد التأثر بالشعر الصوفي عند أدونيس تأثره بعقيدة "موقف نور" من كتاب المواقف للنفري إذ يقول:

أوقفني في نور وقال...

يا نور انقبض وانطوِ وانتشر واخفَ واظهر. فانقبض وانبسط[60]

ويقول أدونيس:

أيها الجسد انقبض وانبسط واظهر واختفِ

فانقبض وانبسط وظهر واختفى[61]

التأثر واضح ويصل إلى درجة التناص.

إن تأثيرات الصوفية واضحة في أشعار أدونيس خلّفها البعد المعرفي الصوفي لديه. وهو يعترف بذلك إذ يقول: "لقد وجدت في نفسي حاجةً إلى التحرر من الشكل الصارم "شبه العقيدي" الذي يخنق الشعر الكلاسي، ويحدّ من حركته إلا أن تعرفي على الفكر الصوفي كان بحق الخطوة الحاسمة لتحقيق هذا المطمح"[62]

الشخصيات الأسطورية:

وظّف أدونيس عدداً من الشخصيات الأسطورية في أشعاره نذكر منها أورفيوس الذي حاول أن يعيد حبيبته إلى الحياة بعد موتها، ونزولها إلى العالم السفلي، حيث استدر بموسيقا قيثارة عطف الجمادات والأحياء، لكنه فشل في نهاية

---

[56] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1،ص 379.

[57] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1،ص 86.

[58] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1،ص 272.

[59] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1،ص 279.

[60] محمد بن عبد الجبار بن حسين النفري. كتاب المواقف، (مصر: مطبعة الحلبي، د. ت)، ص 72.

[61] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2،ص 144.

[62] علي أحمد سعيد إسبر. مجلة البيان الكويتية، عدد 334، ص 75.

المطاف في تحقيق مبتغاه[63]، وقد خصّه أدونيس بقصيدتين من قصائده القصار الأولى بعنوان "أورفيوس"[64] والثانية بعنوان "مرآة لأورفيوس"[65]، يقول في الثانية:

قيثارك الحزين أورفيوس
يعجز أن يغير الخميرة
يجهل أن يصنع للحبيبة الأسيرة
في قفص الموتى سرير حبٍ يحنّ أو زندين أو ضفيرة
يموت من يموت، أورفيوس
والزمن الراكض في عينيك
يكبو، وفي يديك ينكسر القيثار

إن خيبة أورفيوس في وجه الموت وعجزه عن إعادة حبيبته إلى الحياة هي خيبة كل إنسان يواجه مصيره المحتوم، ولا يجد مفراً من هذا المصير مهما جهد وسعى لمواجهته، لأن خميرته التي جُبل منها فطرت على هذه الحتمية.

ومن الشخصيات الأسطورية التي وظفها أدونيس شخصية "سيزيف"[66] الإله الذي عوقب بحمل الصخرة من أسفل الجبل حتى القمة، وعندما يكاد يصل تفلت من بين يديه، وتعود إلى القاع، وهكذا يعيد الكرّة ويستمر ولكن من دون جدوى.

لقد خصّ أدونيس سيزيف بقصيدتين من قصائده القصار أيضاً الأولى لم يصرح فيها باسمه بل عنونها بـ "الصخرة" والثانية جاءت بعنوان "إلى سيزيف" ففي القصيدة الأولى يبدو أدونيس راضياً بقدره في حمل صخرته التي تثقل خطواته، وما صخرته سوى همّه في تحقيق حلمه، ومشروعه الحضاري إذ يقول:

رضيتُ بما شئتِه: أغنياتي
خبزي ومملكتي كلماتي
فيا صخرتي أثقلي خطواتي
حملتك فجراً علي كتفيَّ،
رسمتكِ رؤيا على قسماتي[67]

أما في قصيدته الثانية فيقسم أدونيس أن يكون سيزيف العصر مصراً على حمل الصخرة ومتابعة الطريق حيث يقول:

أقسمت أن أكتب فوق الماء
أقسمت أن أحمل مع سيزيف
صخرته الصماء

---

[63] ماكس شابيرو وورودا هند ريكس. معجم الأساطير ت: حنا عبود. (دمشق: دار الكندي، 1989)، ص 191.
[64] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 377.
[65] علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس). الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 501.
[66] ماكس شابير ووررودا هند ريكس. ت: حنا عبود. معجم الأساطير (دمشق: دار الكندي، 1989 م)، ص 229.
[67] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 370.

أقسمت أن أعيش مع سيزيف[68]

أما الشخصية الأسطورية الثالثة التي يوظفها أدونيس، فهي شخصية "أوديس"[69] ويخصه أيضاً بقصيدتين الأولى بعنوان "أبحث عن أوديس" والثانية بعنوان "أوديس" وفي كلتا القصيدتين يبدو أدونيس أوديسَ مغامراً في رحلة الخلق والإبداع، يجهد أن يصل إلى برّ الأمان ولكن من دون جدوى. يقول في القصيدة الأولى:

أبحث عن أوديس
لعلّه يرفع لي أيامه
لعله يقول لي، يقول ما تجهله الأمواج[70]

ويقول في الثانية:

تسأل ما اسمي – اسمي أنا أوديس
أجيء من أرضٍ بلا حدود
محمولةٍ فوق ظهور الناس؛
ضعت هنا وضعت مع قصائدي هناك
وها أنا في الرعب واليباس
أجهل أن أبقى، وأن أعود[71]

الأسطورة الأبرز والأهم في توظيف أدونيس الأسطوري، كانت أسطورة البعث، أو ما سمي أسطورة الخصب، وبرزت بشخصيات أسطورية متعددة منها "تموز" و "أدونيس" و "طائر الفينيق" وقد احتلت تلك الأسطورة الجزء الأكبر من مضامين شعر أدونيس، ولاسيما أن أدونيس، يأتي في طليعة الشعراء التموزيين أمثال: بدر شاكر السيّاب، وخليل حاوي، وعبد الوهاب البياتي، وأنسي الحاج وغيرهم الذين تبنوا أسطورة الخصب التي تقوم على مشروع حضاري، يرمي إلى هدم البنى القديمة الموروثة التي تقف عقبة في وجه التقدم والتطور، وبناء بنى ثقافية جديدة، تلائم روح العصر في مسيرة التجاوز والتخطي التي دعا إليها أدونيس أملاً ببناء مجتمع أكثر تطوراً ورقياً.

لقد أفرد أدونيس قصيدة طويلة لهذه الأسطورة، عرض فيها مختلف شخصيات الأسطورة سماها قصيدة "البعث والرماد"، على الرغم من أن المضامين في شعره مشبعة بروح أسطورة الخصب، وإن لم يصرح بذلك علناً.

لقد اعتمد أدونيس على أسطورة الخصب التي تفسّر الطبيعة وتعاقب الفصول في جانبها التموزي، وعلى قضية الموت والانبعاث في جانبها الأدونيسي وعلى قضية الاحتراق والبعث من الرماد في جانبها الفينيقي يبدأ أدونيس قصيدته بقوله:

أحلم أن في يديّ جمرةً
آتيةً على جناح طائرٍ
من أفقٍ مغامرٍ
أشم فيها لهباً هيا كلياً[72]

---

[68] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 427.

[69] ماكس شابير ورودا هند ريكس. ت: حنا عبود. معجم الأساطير (دمشق: دار الكندي، 1989 م)، ص 185.

[70] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، ص 394.

[71] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، ص 402.

إن الطائر الذي يتحدث عنه أدونيس في هذا المقطع، هو طائر الفينيق –وإن لم يصرح باسمه–، وهو سرعان ما يلجأ إلى التوحد به، ومشاركته في المعاناة، حيث يصبح أدونيس تجلياً، وانبعاثاً جديداً من تجليات وانبعاثات طائر الفينيق الذي يحترق، وينفر من رماده يقول:

غربتك التي تميت يا فينيق، غربتي
أزحت عن وجودي الركام والفراغ والدجى
هدمت باب سجني الكبير[73]

وفي المقطع الرابع من القصيدة والذي يحمل عنوان "ترتيلة البعث" يبدأ أدونيس حواراً درامياً مع الطائر فيخاطبه بقوله:

فينيق، يا فينيق
يا طائر الحنين والحريق
يا ريشة سائرة بلا رفيق
ساحبةً وراءها الظلام والبريق[74]

ثم يتابع حواره الدرامي مع هذا الطائر، فيتوجه إليه شاكياً طالباً منه أن يحترق لتنبعث من رماده حياة جديدة جديرة أن تعاش في هذه الأرض القاحلة.

يقطع أدونيس خطابه الدرامي مع طائر الفينيق فجأة، لينقلنا إلى مشهد آخر من مشاهد الأسطورة، وتجلٍ آخر من تجلياتها، يتمثل بالإله تموز إله الخصب مضرجاً بدمائه، لينبت من دمائه القمح وشقائق النعمان. يقول أدونيس:

تموز كالإله
البطل استدار نحو خصمه
تموز يستدير نحو خصمه
أحشاؤه نابعةٌ شقائقاً
ووجهه غمائمٌ، حدائقٌ من المطر
ودمه، ها دمه جرى
سواقياً صغيرة تجمعت وكبرت
وأصبحت نهر[75]

وعندما ينتهي أدونيس من تصوير مشهد معركة تموز (أدونيس) مع الوحش، وسقوطه قتيلاً مضرجاً بدمه. الدم الذي تحول إلى نهر عطاء، فأنبت الشقائق والخصب، يعود ثانيةً إلى مشهد طائر الفينيق المحترق المنبعث من رماده متمنياً أن يكون طائر فينيق الشعر في هذا الشرق، يحترق ليضيء، وينال شرف التضحية والريادة.

---

[72] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 251.
[73] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 255.
[74] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1، ص 263.
[75] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، ص 249.

4- الفكر التناسخي: يقول الدكتور علي الشرع: "إنه لأمر ضروري جداً أن تفهم لغة أدونيس، ومصطلحاته، وصوره على ضوء الفكر التناسخي، فكثير من الكلمات المتعارف على دلالتها العامة مثل الحجر، الطواف، الرحيل أو السفر قد أعطيت في شعر أدونيس دلالات جديدة بسبب استخدامها في سياق الفكر التناسخي"[76]

ويقوم الفكر التناسخي على أساس خلود الروح، وفناء الجسد، فالجسد هو قميص الروح تبدله، وتنتقل إلى آخر عندما يبلى. كما يقوم على أساس الدورة المستمرة في التشكل، أو على أساس الظهورات غير المحدودة التي يمرّ خلالها الكائن، فالإنسان بغير الروح ليس أكثر من حجر.

القصائد التي تبنى على أساس الفكر التناسخي في شعر أدونيس عديدة نذكر منها "مرآة الزلاجة السوداء"[77]، و"مرآة الطواف"[78] و"كيمياء النرجس"[79] ولا نرى ضرورة هنا للتفصيل في الحديث عن الفكر التناسخي في شعر أدونيس، لأن هذا الموضوع قد بحث من قبل د. علي الشرع في كتابه "بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس" وإنما سنكتفي بالإحالة، والإشارة إلى توظيف أدونيس هذا الفكر في إبداعه الشعري، وسأكتفي بتوضيح ذلك من خلال نموذج واحد.

يقول أدونيس من قصيدة بعنوان "مرآة الزلاجة السوداء":

أسمعتني؟ أنا غير هذا الليل، غير سريره اللزجِ
المضاءِ

جسدي غطائي
رقع مزركشة لفقتُ خيوطها بدمي، وتهتُ
وكان في جسدي متاهي
غلّفتُ بالحجر السماءَ، تركت أهدابي ردائي
حاجيت من غضبٍ إلهي
وقرأت إنجيل الرضاعة،
كي أكشف الحجر المسافر في ورائي
أعرفتني؟ جسدي غطائي

إن المخلوق الذي يتحدث أدونيس بلسانه في هذه القصيدة هو الإنسان ذاته، ولكن في جوهره المعنوي لا المادي، فالإنسان بصفته مادة ليس أكثر من حجر، وهذا ما ينتهي إليه الكائن الحي بعد خروج الروح من الجسد. فالجسد غطاء الروح الذي يسترها ويخفيها وهي مصدر الغموض والحيرة والتساؤل الذي يطرحه أدونيس في القصيدة. لكن أدونيس بمنطقه الحلولي، وحيرته المضيئة التي تعرف كلّ شيء، يزعم أنه يعرف سرّ الحياة وجوهر الإنسان، فهناك روح خالدة، وقادرة عندما تتحرر من سجن الجسد لا يخفى عليها شيء فهي تملك المعرفة الكلية بغير حدود ولكن قد تضل طريقها وتتوه فتسجن في جسد من الحجر، وعندها تفقد قدرتها المطلقة، ومعرفتها الكونية، وتوحدها بخالقها. فتشعر بالغضب،

---

[76] د. علي الشرع. بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1987 م)، ص 76.

[77] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 495.

[78] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 503.

[79] علي أحمد سعيد إسبر. الأعمال الشعرية الكاملة، مج 2، ص 535.

والقلق، وتسعى جاهدة إلى استعادة ما فقدته في هذا التجسد ولكن من دون جدوى. لذلك تبقى دائماً في حيرة وتساؤل وقلق نتيجة شعورها بالفقر والعجز.

أعتقد أن أدونيس لم يأت بجديد في هذا السياق، بل اعتمد على التراث الديني في قصة الخلق، فآدم أبو البشر، لم يكن أكثر من عجينة ترابٍ قبل أن ينفخ الله في تلك العجينة من روحه، وعلى هذا الأساس يفسر أدونيس حقيقة الروح بأنها حلول الله في مخلوقاته. ولكن السؤال الذي نطرحه نحن هل فاقت معرفة أدونيس في أمر الروح معرفة الأنبياء في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً".

الخاتمة:

يتسلح أدونيس بثقافة تراثية واسعة، وهو قارئ متعمقٌ، ومتبحر في مجاهله، ينظر إليه بعين واعية متفحصة، ورؤيا ثاقبة قادرة على الكشف والتقصي.

يصنف أدونيس في موقفه من التراث بين صفوف المعتدلين، ويحاول دائماً أن يبقى خارج سلطته، لكي يكون قادراً على اتخاذ الموقف الحر، والرأي الصائب منه، فلا يغض الطرف عن سلبياته، كما فعل المنبهرون به والمتعصبون له من الأصوليين، ولا ينكر ما فيه من قيم روحية وإنسانية، كما فعل المغالون من أتباع مدرسة الحداثة دعاة العصرية المطلقة في المعركة بين القديم والجديد.

ويعترف أدونيس بأننا أخطأنا في تعاملنا مع التراث حيث أفلح القدماء، فالقدماء تعاملوا مع الأصول في السياسة والدين والفكر على مستوى يستجيب لمشكلاتهم وعصرهم، أما نحن فنتبنى اليوم المستوى ذاته، دون أن ننطلق من مستوى يستجيب لمشكلاتنا المختلفة، وعصرنا المختلف.

و يميز أدونيس في التراث الثابت من المتحول، والميت من الحي، والآسن من المتحجر، وما هو قابل للتجديد والتطور. فيصف الثابت الميت بالقديم، والمتحول الحي بالتراث، فالتراث الحقيقي هو المتغير ولهذا كان تمسك الإنسان بتراث لا يتغير دليلاً على أن هذا الإنسان فقد القدرة على تجديد نفسه وأصبح في مستوى الأشياء، وأدونيس في العلاقة مع التراث يدعو دائماً إلى التجاوز والتخطي؛ لأن الحداثة العربية تسبح في الإبداعات العربية الماضية وحين يدعو إلى تجاوز الماضي، فإنه يدعو تحديداً إلى تجاوز تصورات معينة للماضي، أو لفهم معين، أو لبنى تعبيرية معينة، أو لمعايير وقيم معينة، وهذا لا يعني أننا ننفك أو ننفصل عنه، كأنه أصبح عضواً ميتاً زال وتلاشى فهذا محال، والقول به جهل كامل، لا بالماضي وحده بل بطبيعة الإنسان وطبيعة الإبداع.

لقد اختلفت آراء النقاد في موقف أدونيس من التراث وتضاربت فمنهم من وصفه بأنه عدو التراث الأول، وأشرس من أساء إليه ومنهم من وصفه بأنه ينظر إلى التراث نظرة احترام وتقدير. فهو لا يحرض الشاعر المعاصر على التراث، ويدعوه إلى قطع الصلة به، بل يحاول أن يضع تصوراً للعلاقة الصحيحة التي يجب أن تقوم بين الشاعر المعاصر والتراث.

يقف أدونيس في طليعة شعراء الحداثة الذين نظروا إلى التراث نظرة تفهم وإدراك ووعي مستلهمين ما فيه من قيم روحية وإنسانية، وقد وظفوا تلك القيم في إبداعاتهم الشعرية المعاصرة. فأشعار أدونيس مشبعة بالمضامين التراثية، وقد استفاد من مختلف مصادره فاستفاد من لغة القرآن الكريم، ومعانيه السامية على نطاق ضيق في مطلع مسيرته الشعرية، وتكاد الاستفادة من الحديث الشريف تغيب عن أشعاره أما بالنسبة إلى الأقوال المأثورة والأمثال، فجاءت على نطاق ضيق، وخارج نطاق النص الإبداعي. وربما يعود ذلك إلى الفكر العلماني الذي يحمله أدونيس.

لقد أظهر أدونيس ولعاً كبيراً بتوظيف الشخصيات التراثية على اختلاف ألوانها (سياسية، أدبية، فلسفية دينية، أسطورية) فمن الشخصيات التي أثارت اهتمامه في السياسة شخصية عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الرحمن الداخل (صقر قريش)، والحجاج وتيمور لنك...إلخ وفي الأدب بشار بن برد، والمعري والمتنبي، مهيار الديلمي، ووضاح اليمن...إلخ وفي الفن زرياب وفي التصوف النفري، والحلاج، وابن عربي، والجنيد، وجميعهم من شعراء التصوف وقد تأثر بمصطلحاتهم ولغتهم الصوفية التي تميل إلى الغموض والإبهام، فيما يتعلق بالشخصيات الأسطورية التي وظفها أدونيس في أشعاره نذكر (أورفيوس، وسيزيف، وأوديس، وتموز، وطائر الفينيق) والأسطورة الأبرز والأهم في توظيف أدونيس للأساطير كانت أسطورة الخصب، أو البعث التي احتلت مساحة كبيرة من أشعاره حتى صنف بين الشعراء التموزيين في حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وعلى أساس هذه الأسطورة، يقوم مشروعه الحضاري في التغيير والتجديد وفي التجاوز والتخطي عن طريق الهدم والبناء أو الحرق والتطهير.

ولا يخلو شعر أدونيس في عدد من قصائده من تأثره بالفكر التناسخي الذي يقوم على أساس الظهورات غير المحدودة للكائن الحي والمستمرة، والقائل بخلود الروح وفناء الجسد.

المراجع:

1-القرآن الكريم.

2-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *الأعمال الشعرية الكاملة*. المجلد الأول. بيروت: دار العودة، 1971م.

3-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *الأعمال الشعرية الكاملة*. المجلد الثاني. بيروت: دار العودة، 1971م.

4-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *الثابت والمتحول*. بيروت: دار العودة، 1975م.

5-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *الثابت والمتحول*. (تأصيل الأصول). بيروت: دار الساقي، 2001م.

6-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *زمن الشعر*. بيروت: دار العودة، 1975م.

7-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *الصوفية والسريالية*. بيروت: دار الساقي، 1992م.
8-إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). *المحيط الأسود*. بيروت: دار الساقي، 2005م.
9-د. إسماعيل، عز الدين. *الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية*. بيروت: دار العودة، 1978م.
10- خنسة، وفيق. *دراسات في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار الحقائق، 1980م.
11- سعيدة، خالدة. *حركية الإبداع*. بيروت: دار العودة، 1982م.
12- شابيرو، ماكس وهند ريكس، رودا. ت: حنا عبود. *معجم الأساطير*. دمشق: دار الكندي، 1989م.
13- الشرع، علي. *بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1987م.
14- النفري، محمد بن عبد الجبار بن حسين. *كتاب المواقف*. مصر: مطبعة الحلبي، د. ت.

الدوريات:

1- إسبر، علي أحمد سعيد. "*مقابلة*" مجلة البيان الكويتية، العدد 334.
2- الخطيب، أحمد مبارك. "*الحداثة في شعر بشار بن برد*". مجلة جامعة تشرين العدد 9.
3- دسوقي، عبد العزيز. "*الأديب العربي بين التراث والمعاصرة*". مجلة التراث العربي. العدد 24 (1987م).